

في نور محمد فاطمة الزهراء

هيئة هذه الأم الثانية ملاء عينيه. ذكرها على لسانه، وكيانها بعض كيانه، وحبها في وجدانه، وحنانها توأم حنانه، أشبه بإيثاره الصغيرة، كانت هي أيضاً أثيرة. وأولئك الذين عساهم حسبوا أن إحساسه نحوها إنَّما كان نابعاً من عرفانه بالفضل، وإقراره بالجميل، قد أخطأوا في الواقع سواء التأويل. فما قدَّروه حقَّ قدره، لا هم أحسنوا سبر أغواره [271]، ولا هم أدركوا حقيقة شعوره، ولا هم خلصوا إلى صفاء روحه، قصارى ما بلغه تفكيرهم أنَّهُ كان يوفيهما الجزاء الأوفى، أخذ منها فكان لابدَّ أن يعطي، وكيل له فكان عليه أن يكيل. إنَّهم ذكروا يد فاطمة بنت أسد عليه، إذ احتضنته ورعته، فطنَّوه يردُّ المنة بالمنة، ويطلق اسمها على الابنة. إنَّهم علموا يد عمِّه أبي طالب عنده، إذ كفله وربَّاه، فطنَّوه لقاء هذه اليد قد كفل له ابنه علياً وربَّاه. الأمر في نظرهم دَيْن وأداء، درهم بدرهم، مثقال بمثقال. ألا لو أنَّهم فقهوا لما فاتهم أنَّ العواطف الإنسانية الكريمة هي غير ما يظنُّون، وهي أسمى من كلِّ ما يخامر أذهانهم من تقدير، فهي لا تُشترى ولا تُباع، لا تُثمَّن بثمن كما يُثمَّن المتاع، لا تُقاس كالقماش بالعروض والأطوال، لا توزن بالصنّاج وزن الأثقال. فليتهم استشفوا نفس محمد! إذن لعرفوا معدن خلقه، ولتبيَّنوا أنَّه فوق مثل هذا اللون من العرفان والوفاء، فهو يحبُّ حبّاً للحبِّ؛ فناءً في الحبِّ، وهو يعمل ولاءً للعمل، عبادةً، وهو يمارس مكارم الأخلاق كما يتنفَّس الهواء.